﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الثَّناءُ على المُنعِمِ بعدَ رؤيةِ النِّعمةِ، وتذكّر قدرة الله على كلّ شيء

لمّا رأى ذو القرنين أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لا يستطيعونَ أنْ يَظْهَروا على ما بنى مِنَ السَّدِّ، ولا يَقدِرونَ على نَقْبِه، لم يَنسُبِ الفضلَ لنفسِه؛ لأنَّهُ مُجرَّدُ أداةٍ للتَّنفيذِ، بل نسبَهُ لربِّه فقالَ: هذا الَّذي بنيتُهُ وسوَّيتُهُ حاجزًا رحمةٌ مِنْ ربّي، رَحِمَ بها مَنْ هُم دونَ السَّدِّ مِنَ النّاسِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَحْمَةٌ﴾: الرَّحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ، وبخصوص اللّه تعالى فهي صِفةٌ ذاتيَّةٌ فعليَّةٌ ثابتةٌ للّه ﷻ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، ولا تُقصر على الإنعامِ، أو إرادةِ الإنعامِ، فهو تعالى ذو الرَّحمةِ الواسعةِ العَظيمةِ التي وسِعَت كُلَّ شَيءٍ، وعَمَّت كُلَّ حَيٍّ، وكتَبَها للمتَّقينَ المتَّبِعينَ لأنبيائِه ورُسُلِه، فهؤلاء لهم الرَّحمةُ المُطلَقةُ، ومَن عداهم فلهم نصيبٌ منها، نحوُ قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[2].

2) ﴿وَعْدُ﴾: (وعد) يدلّ على التَّرجية بقولٍ[3]، ويُتوسَّعُ فيه فيُستعمَلُ في غيرِ القولِ، فيقالُ على سبيلِ المجازِ: أرضُ بني فلانٍ واعدةٌ، إذا رُجيَ خيرُها مِنَ المطرِ والإنباتِ[4]، والوَعْدُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ[5]، وقولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 118، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4590، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8992.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (وعد).
(5) الجوهري، الصحاح: (وعد).

أُريدَ به ما في علمِ اللّه سبحانَهُ مِنَ الأجلِ الَّذي ينتهي إليه دوامُ ذلكَ الرَّدْمِ[1].

3) ﴿دَكَّآءَ﴾: (دكّ) يدلُّ على تطامنٍ وانسطاحٍ، ومِنْ ذلكَ: الأرضُ الدَّكّاءُ، وهي الأرضُ العريضةُ المستويةُ اللَّيِّنةُ السَّهلةُ[2]، وقد يكونُ التَّطامنُ والانسطاحُ على إثْرِ هَدْمٍ وكَسْرٍ وضَغْطٍ شديدٍ[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾، أي: سوّاهُ بالأرضِ، فألزقَهُ بها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ جل شأنه عن ذي القرنين أنَّهُ لمّا انتهى مِنْ بناءِ السَّدِّ، ورأى أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لا يستطيعونَ أنْ يظهَروهُ، ولا يَقْدِرونَ على نَقْبِه - قالَ: هذا الَّذي بنيتُهُ وجعلتُهُ حاجزًا رحمةٌ مِنْ ربّي، رَحِمَ بها مَنْ هم دونَ السَّدِّ مِنَ النّاسِ، فأعانَني برحمتِه لهم حتَّى بنيتُهُ؛ ليكفَّ بذلكَ غائلةَ يأجوج ومأجوج عنهُم، ويمنعهم منه، فإذا دنا يومُ القيامةِ، وحانَ وقتُ ظُهورِ علاماته ومنها خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، سوّاهُ بالأرضِ، فألزقَهُ بها، وكان وعدُ اللّه بتسويته بالأرض وبخروجِ يأجوج ومأجوج ثابتًا لا خُلْفَ فيه، وكلُّ ما وعدَ به ربّي فهو حقٌّ ثابتٌ، لا يرتابُ فيه عاقلٌ[5].

العبدُ الصّالحُ ينسبُ النِّعمةَ لـربِّـه لا إلى نـفـسِـهِ، ويـقـرّ بإحاطة الله بكلّ شيء

وترشد الآية الكريمة إلى حالِ الخلفاء الصالحين، إذا منَّ اللّه عليهم بالنِّعم الجليلة، ازداد شكرُهم وإقرارُهم، واعترافُهم بنعمة اللّه، كما فعل سليمان عليه السلام، لمّا حضر عنده عرش مَلِكة سبأ مع البُعْد العظيم؛ إذ قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دكك).
(3) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دكك).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 118.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 118، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 199.

40] بخلاف أهل التجبُّرِ والتكبُّر والعلوِّ في الأرض؛ فإنَّ النِّعم الكِبارَ تزيدُهم أشرًا وبطرًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

بعد تمام النِّعمة يعلن القائد ما امتلأ به وجدانه

فُصِلَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعْطَفْ عليهِ؛ لما بينَ الآيتينِ مِنْ شِبْه كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ فقولُهُ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهُ لمّا أعلمَ الكلامُ بانتهاءِ حكايةِ وصفِ الرَّدْمِ، كانَ ذلكَ مُثيرًا سؤالَ مَنْ يسألُ: ماذا صدرَ مِنْ ذي القرنين، حينَ أتمَّ هذا العملَ العظيمَ؟ فأُجيبَ بجملةِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[2].

دلالة مرجع اسم الإشارةِ في السّياق:

عظمة السّدّ في بنيانه بأنّه رحمة من الله في أوانه

مرجعُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ﴾ هو السَّدُّ، والمعنى: هذا السَّدُّ نعمةٌ مِنَ اللهِ ورحمةٌ بعِبادِهِ[3]، في دفعِ ضررِ يأجوجَ ومأجوجَ[4]، أومرجعُ الإشارةِ هو الإقدارُ والتَّمكينُ مِنْ بناءِ السَّدِّ، أي: هذا التَّمكينُ مِنْ بناءِ السَّدِّ نعمةٌ مِنَ اللهِ ورحمةٌ بعِبادِهِ[5]، والأصلُ في الإشارةِ أنْ تكونَ إلى محسوسٍ، أي: هذا الَّذي ظهرَ على يديَّ، وحصلَ بمباشرتي مِنَ السَّدِّ الَّذي شأنُهُ ما ذُكِرَ مِنَ المَتانةِ وصعوبةِ المَنالِ[6]، فالضَّميرُ في ﴿جَعَلَهُۥ﴾ راجعٌ إلى السَّدِّ؛ إذ هو الَّذي يُتصوَّرُ فيه الدَّكُّ معَ متانتِه ورصانتِهِ[7].

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 140، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 209، والزّمخشريّ، الكشاف: 2/ 748، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 544، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 63.

(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 312، والزّمخشريّ، الكشاف: 2/ 748، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 294.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246.

(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 363.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿رَحْمَةٌ﴾ وتنكيرِهِ:

المبالغةُ في تعظيمِ شأنِ السَّدِّ دليلٌ على أهميّته وتفرّده

قولُهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أصلُ معناهُ: هذا - أي: السَّدُّ - أثرُ رحمةٍ مِنْ ربّي، بتقديرِ مضافٍ، لكنْ بولِغَ في تعظيمِ شأنِ السَّدِّ، وما حصلَ به مِنَ المَنافعِ ودفعِ مَضارِّ يأجوجَ ومأجوجَ، فأُخبِرَ عنهُ بأنَّهُ رحمةٌ مبالغةً في تصويرِ الحالِ، كأنَّهُ مُثِّلَ في صورةِ رحمةٍ، وزادَ شأنَ هذا التَّعظيمِ تنكيرُ ﴿رَحْمَةٌ﴾ المفيدُ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: هذا رحمةٌ عظيمةُ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُها[1].

دلالة الحرف ﴿مِّن﴾ في قولِهِ: ﴿مِّن رَّبِّي﴾:

بيان أنّ مصدر الرَّحمة الأصيل مِنَ الرَّبِّ الجليل

﴿مِّن﴾ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: هذا رحمةٌ ابتداؤُها مِنْ ربّي الرَّحيمِ مصدرِ الخيراتِ والرَّحَماتِ، ومُفيضِ العطايا والهباتِ؛ لأنَّهُ ألهمَني ذلكَ، ويسَّرَ لي ما هو صعبٌ، وذلَّلَ لي وسائلَ بناءِ السَّدِّ المتينِ العظيمِ الشَّأنِ[2]، وفي ذلكَ أيضًا إيذانٌ بأنَّهُ ليسَ مِنْ قَبيلِ الآثارِ الحاصلةِ بمباشرةِ الخَلْقِ عادةً، بل هو إحسانٌ إلهيٌّ مَحْضٌ وإنْ ظهرَ بمباشرتي[3].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الرَّبِّ) في السّياق:

سوق معنى الرَّحمةِ في معرض وصفِ الرُّبوبيّة

لمّا كانَ السّياقُ لذكرِ رحمةِ اللهِ بعبادِهِ، وتفضُّلِه عليهم، بتمكينِ ذي القرنينِ مِنْ بناءِ السَّدِّ الَّذي يَعصِمُهم مِنْ شرِّ يأجوجَ ومأجوجَ، وكانَ ذو القرنينِ في مقامِ التّبرُّؤِ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ، وإسنادِ النِّعَمِ إلى مُوليها ﷻ ناسبَ ذلكَ إيرادُ وصفِ الرُّبوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ المُنبِئَ عنِ الإحسانِ والإنعامِ[4]؛ لما في التَّعرُّضِ لهذا الوصفِ مِنْ تربيةِ معنى الرَّحمةِ بأنَّها صادرةٌ مِنَ الحيِّ القيّومِ الَّذي إليه يُرجَعُ أمرُ الخَلْقِ كُلِّهِ[5].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 363.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 39.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 246.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 140.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 246، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 363.

الغرض من إضافةِ ﴿رَّبِّي﴾ إلى ضميرِ المتكلِّمِ:

مَنْ عاينَ آثارَ الرُّبوبيَّةِ تشرَّفَ وتلذَّذَ بالعُبوديَّةِ

في إضافةِ ذي القرنين لفظَ الرُّبوبيَّةِ، إلى ضميرِ المتكلم في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾، مزيدُ تجرُّدٍ مِنْ حَوْلِه وقوَّتِه؛ إذ المعنى: هذا السَّدُّ مَحْضُ رحمةٍ مِنَ المُحسِنِ إليَّ بإقداري عليه، ومنعِ الفسادِ به، ولولا عَوْنُهُ وتيسيرُهُ ما تمَّ بناؤُهُ[1]، وفيها أيضًا تشريفٌ لنفسِه، وافتخارٌ بالانتظامِ في سِلْكِ المربوبينَ، وتلذُّذٌ بإضافةِ لفظِ المُحسِنِ المُنعِمِ إلى الضَّميرِ المُعبِّرِ عنهُ.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في الآيةِ:

كلُّ ما في الوجود منوط بإرادة الله في بقائه ودكّه

في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، يدلُّ عليه سياقُ الكلامِ اللّاحقُ، والتَّقديرُ: (قالَ هذا رحمةٌ مِنْ ربّي، وهو يستمرُّ إلى آخرِ الزَّمانِ، فإذا جاءَ وعدُ ربّي جعلَهُ دكّاءَ)[2].

معنى الفاءِ في ﴿فَإِذَا﴾:

المُقدَّرُ في الكلامِ تكتملُ به دلالة المعنى

الظّاهرُ أنَّ الفاءَ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن محذوفٍ؛ إذ التَّقديرُ كما مرَّ: (وهو يستمرُّ إلى آخرِ الزَّمانِ، فإذا جاءَ وعدُ ربّي جعلَهُ دكّاءَ)، وقيلَ: الفاءُ للسَّببيَّةِ، لكنْ لسببيَّةِ إخبارِ المجيءِ لا لنفسِهِ[3]، وقد تكون استئنافية وفي الحذف إيجازٌ، واعتماد على قوة المعنى في الدلالة.

إفادة لفظ ﴿فَإِذَا﴾ الظَّرْفيّة والشَّرْطية:

مجيءُ الوعدِ أمرٌ مُستقبَليٌّ مقطوعٌ به لا محالة

﴿فَإِذَا﴾ ظرفٌ لما يُستقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، وتفيدُ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾، أنَّ مجيءَ الوعدِ أمرٌ مُستقبَليٌّ، وهي أيضًا شرطيَّةٌ تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 140.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 364.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 171.

الاستقبالِ[1]، فيكونُ مجيءُ الوعدِ مقرِّرًا لمعنيين من دلالات حروف المعاني، كونه أمرًا مقطوعًا بهِ، ولا شكَّ في حصولِهِ.

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في الفعل ﴿جَآءَ﴾:

لمّا كانَتْ ﴿فَإِذَا﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ للشَّرطِ في الاستقبالِ، وتُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ - غُلِّبَ لفظُ الماضي معَها في الفعل ﴿جَآءَ﴾؛ لدلالتِه على الوقوعِ قطعًا؛ نظرًا إلى اللَّفظِ نفسه، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ[2]، ولذلكَ جاءَ الإخبارُ عن مجيءِ الوعدِ ماضيًا.

ما أخبر الله بوقوعه، فهو واقع يقينا بلا ريب

بلاغةُ المجازِ في سياق الآية:

اختُلِفَ في لفظِ الوعدِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾: فقيلَ: الوعدُ على بابِهِ[3]، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: (فإذا جاءَ وقتُ وعدِ ربّي)، والإسنادُ إلى الوعدِ مجازٌ، وهو لوقتِه في الحقيقةِ[4]، وقيلَ: الوعدُ مصدرٌ بمعنى المفعولِ، أي: فإذا جاءَ موعودُ ربّي[5]، وهو وقتُهُ أو وقوعُهُ، فلا حذفَ، ولا مجازَ في الإسنادِ، بل هناكَ مجازٌ في الظَّرفِ، أي: في لفظِ الوعدِ[6].

في المجاز قوة في المعنى ومبالغة فيه

بلاغة العدول عن المضمر إلى الظاهر في الوعد:

أُضيفَ الوعدُ في قولِه عزَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ، ولم يُضَفْ إلى الضَّميرِ، كأن يقال: (فإذا جاء وعده)؛ لما في الإضافةِ إلى الاسم الظاهر مِنْ تأكيدِ تحقُّقِ الوعدِ،

التعبير بالظاهر أقوى في الدلالة وآكد في تحقق الوعد

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 270.
(2) التفتازاني، المختصر، ص: 270.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 551.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 363.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 209، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 228، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.

وبيانٍ عظيمٍ قُدرةِ اللّه تعالى، ولا سيَّما والمقامُ مقامُ تخويفٍ وتهويلٍ وتمهيدٍ لذكرِ بعضِ أحوالِ يومِ القيامةِ.

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿جَعَلَهُۥ﴾:

تغليبُ لفظِ الماضي مع (إذا) مفيد في مؤدّى السّياق

عُبِّرَ بالماضي في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾؛ لأنَّ مجيءَ الوعدِ ودكَّ السَّدِّ أمرانِ مقطوعٌ بحصولِهما، ﴿فَإِذَا﴾ للشَّرطِ في الاستقبالِ، وتُستعمَلُ في الشَّرطِ المقطوعِ بوقوعِه، ولذلكَ يُغلَّبُ لفظُ الماضي معَها؛ لأنَّهُ يدلُّ على الوقوعِ قطعًا بالنَّظرِ إلى نفسِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ.

تنوع القراءات للفظ ﴿دَكَّآءَ﴾ وثراء المعنى:

ثراءُ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ مفيد في الدَّلالات

قرأَ عاصمُ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلفٌ: ﴿دَكَّآءَ﴾ بمدِّ الكافِ وهمزةٍ مفتوحةٍ بعدَها غيرِ مُنوَّنةٍ، وقرأَ الباقونَ: ﴿دَكًّا﴾ بتنوينِ الكافِ مِنْ غيرِ همزٍ بعدَها[1]، والدَّكُّ في قراءةِ الجمهورِ مصدرٌ بمعنى المفعولِ للمبالغةِ، أي: جعلَهُ مدكوكًا، أي: مُسوًّى بالأرضِ بعدَ ارتفاعٍ[2]، وأمّا قراءةُ الكوفيّينَ فهي على تقديرِ محذوفٍ، أي: فجعلَهُ أرضًا دكّاءَ، أي: مستويةً[3]، ولا بدَّ مِنْ تقديرِ هذا الحذفِ؛ لأنَّ السَّدَّ مُذكَّرٌ، فلا يوصَفُ بـ ﴿دَكَّآءَ﴾[4]، وقيلَ: التَّقديرُ: فجعلَهُ مثلَ دكّاءَ، والدَّكّاءُ: النّاقةُ الَّتي لا سَنامَ لها، فيكونُ في الكلامِ تشبيهٌ[5].

بلاغةُ ترتيبِ ذكرِ دَكِّ السَّدِّ، بعدَ ذكرِ رحمتِه ببنائِهِ:

اقتران ذكر عِظَمِ القُدرةِ مع ذكرِ سَعَةِ الرَّحمةِ من جميلِ المؤدّى

جعْلُ السَّدِّ دكّاءَ كما دلَّ عليه قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ يكونُ وقتَ مجيءِ الوعدِ بمجيءِ بعضِ مَباديهِ، وفيه بيانٌ

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 293، وابن الجزري، النشر: 2/ 271، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 373.

(2) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/ 748، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 140، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.

(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 217، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 748،

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 64.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 544، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 39.

لعِظَم قُدرته - عزَّ شأنُهُ - بعدَ بيانِ سَعَةِ رحمته في قولِه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[1]؛ ليكونَ القارئُ والسّامعُ أمامَ صورتينِ مختلفتينِ: إحداهما تتجلَّى فيها الرَّحمةُ ببناءِ السَّدِّ المانعِ للشُّرورِ والمفاسدِ، والثانيةُ يتجلَّى فيها عِظَمُ القُدرةِ بدَكِّ السَّدِّ وخروجِ الشَّرِّ وبدايةِ الأحداثِ العظيمةِ.

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿وَكَانَ﴾:

حقّيَّةُ وعدِ اللهِ الأجلِّ أمرٌ مُستمِرٌّ منذُ الأزلِ

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ لبيانِ أنَّ حقّيَّةَ وعدِه جل وعز أمرٌ مُستمِرٌّ منذُ الأزلِ، كانَ كذلكَ، ولا يزالُ، ومَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ قيلًا.

سرُّ إضافةِ الوعدِ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ:

تأكيدُ حقّيَّةِ الوعدِ وإخراجُ التَّذييلِ مُخْرَجَ الأمثالِ

أُضيفَ الوعدُ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ، في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، ولم يُضَفْ إلى الضَّميرِ، فلم يُقَلْ: (وكانَ وعدُهُ حقًّا)؛ لما في الإضافةِ إلى وصفِ الرُّبوبيَّةِ مِنْ تأكيدِ حقّيَّةِ الوعدِ، ولِما في تكرارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ مِنْ تناغُمِه معَ ما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾، وقولِه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾، ولأنَّ الإظهارَ أنسبُ بالتَّذييلِ مِنَ الإضمارِ؛ لأنَّهُ لو قيلَ: (وكانَ وعدُهُ حقًّا) لطلبَ السّامعُ مرجعًا للضَّميرِ، ولم يكنِ التَّذييلُ مُخْرَجًا مُخْرَجَ الأمثالِ؛ لأنَّ الكلامَ مُتوقِّفٌ على ما قبلَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿حَقًّا﴾:

المبالغةُ في حقّيَّةِ الوعدِ مفصحة عن الدّلالة

اختيرَ في بيانِ حقّيَّةِ وعدِه ﷻ صيغةُ المصدرِ، فقيلَ: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، ولم يُقَلْ: (وكانَ وعدُ ربّي حاقًّا) أو نحو ذلكَ؛ لما في التَّعبيرِ بالمصدرِ مِنَ المبالغةِ في وصفِه بالحقّيَّةِ، حتَّى كأنَّهُ تجسَّمَ في صورةِ حقٍّ، والمعنى: وكانَ وعدُ ربّي حقًّا ثابتًا لا محالةَ واقعًا البتَّةَ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 246.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 364.

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿حَقًّا﴾ في السّياق:

التَّفخيمُ والتَّعظيمُ من مزايا التّعبير الحكيم

لمّا كانَ المقامُ لتأكيدِ حقّيَّةِ وعدِه ﷻ وتعظيمِ شأنِها نُكِّرَ لفظُ ﴿حَقًّا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾؛ لما في التَّنكيرِ مِنَ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: وكانَ وعدُ ربّي حقًّا ثابتًا عظيمَ الشَّأنِ.

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿حَقًّا﴾ على (صِدْقًا):

اختيارُ اللَّفظِ الأنسبِ بثبوتِ الوعدِ وتحقُّقِه من بلاغة السّياق

أوثِرَ التَّعبيرُ بالحقّيَّةِ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (وكانَ وعدُ ربّي صِدْقًا)، كما في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ [الأنبياء: 9]، وقولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: 74]؛ لما في التَّعبيرِ بالحقّيَّةِ مِنَ الإشارةِ إلى ثبوتِ الوعدِ؛ لأنَّ مِنْ معاني الحقِّ: الموجودَ الثّابتَ الَّذي لا يَسوغُ إنكارُهُ[1]، فكأنَّهُ قيلَ: وكانَ وعدُ ربّي حقًّا ثابتًا لا يرتابُ فيه عاقلٌ[2].

بلاغةُ التَّذييلِ في قولِهِ: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾:

تقرير المضامين تحقيق للمعنى

جملةُ ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ تذييلٌ لقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾، مُقرِّرٌ لهُ ومُؤكِّدٌ لمضمونِه[3]؛ لأنَّ في الكلامِ السّابقِ القَطْعَ بمجيءِ الوعدِ وجَعْلِ السَّدِّ دَكّاءَ بدليلِ استخدامِ ﴿فَإِذَا﴾، والتَّعبيرِ بصيغةِ الماضي، وفي هذا الكلامِ تقريرٌ لذلكَ وتأكيدٌ ببيانِ أنَّ كلَّ ما وعدَ به ﷻ حقٌّ ثابتٌ لا يُرتابُ في وقوعِه، ويزيدُ بَهاءَ هذا التَّذييلِ العمومُ المستفادُ مِنْ ﴿وَعْدُ رَبِّي﴾، وهذا العمومُ أخرجَ التَّذييلَ مُخْرَجَ الأمثالِ كما تقدَّمَ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجيءُ والإتيانُ:

المجيءُ أقوى في الدَّلالةِ مِنَ الإتيانِ، وبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مِنْ وجهٍ

الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أَتِيٌّ،

(1) الزبيدي، تاج العروس: (حقق).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4590.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 172، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 364.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 40.

وأَتاويٌّ[1]، والمجيءُ أعمُّ[2]، والإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ[3]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ (أتى)[4]، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذه النّاحيةِ.

الوعدُ والوعيدُ:

الوعدُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يقالُ: وعدتُهُ بنَفْعٍ، ويقالُ: وعدتُهُ بضُرٍّ، والغالبُ استعمالُهُ في الخيرِ، والوعيدُ يكونُ في الشَّرِّ خاصَّةً، يقالُ: أوعدتُهُ، فمِنَ الوعدِ بالخيرِ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾ [الفتح: 20]، ومِنَ الوعدِ بالشَّرِّ: قولُهُ تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: 47]، وإنَّما كانوا يستعجلونَهُ بالعذابِ، وذلكَ وعيدٌ[5].

الوعدُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، والوعيدُ يكونُ في الشَّرِّ خاصَّةً

الدَّكُّ والنَّسْفُ:

النَّسْفُ يقالُ في اقتلاعِ الشَّيءِ وإزالتِهِ، ومِنْ ذلكَ: نَسَفَتِ الرّيحُ الشَّيءَ: اقتلعَتْهُ وأزالَتْهُ[6]، والدَّكُّ يقالُ في تسويةِ الشيءِ بالأرضِ، ومِنْ ذلكَ: أرضٌ دكّاءُ، أي: مُسوّاةٌ[7].

النَّسْفُ يقالُ في اقتلاعِ الشَّيءِ وإزالتِهِ، والدَّكُّ يقالُ في تسويتِهِ بالأرضِ

(1) الراغب، المفردات: (أتي).
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) الراغب، المفردات: (جاء).
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 50.
(5) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وعد).
(6) الراغب، المفردات: (نسف).
(7) الراغب، المفردات: (دكك).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»